

تطورّ الجدل الإسلامي اليهودي ودخول عناصر جديدة عليه

تعتبر " السيرة النبويّة " لابن هشام المرجع الأساسي في دراسة سيرة الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) والشاهد المهم على تلك العلاقة التي سادت بين الرسول والمسلمين من جهة، واليهود والمشرّكين من الجهة الثانية . وبين ابن هشام، من خلال الأخبار التي ينقلها، أن اليهود كانوا يطمعون في أن يكون النبي منهم وعاملاً بإرادتهم . وكانوا واثقين من ذلك، وهذا ظهر في عدة مواقف كانوا يجاهرون بظهوره القريب وبأنه سيكون عوناً لهم ضدّ خصومهم من القبائل العربية الأخرى .

لكنهم كما يذكر ابن هشام، رفضوا الدعوة وناصربوا الرسول العداء بعد ظهوره . وزاد هذا الرفض بعد أن قبل بعض اليهود الدين الجديد وآمنوا به، خاصة ما كان من إسلام عبد الله بن سلام ومُخيرق . عندها لم يجد الرسول أمامه من سبيل إلاّ المجاهرة بخصومة اليهود فكرياً ومادياً .

هذا الموقف العدائي للإسلام لم ينحصر في المواجهات الكلامية، وإنما تعدّاه إلى المواجهات الحربية في العديد من الغزوات التي قام بها الرسول والمسلمون ضدّ اليهود . واستمر بعد موت الرسول ليتشعب إلى طرح العديد من القضايا التي

شغلت المفكرين والفلاسفة وكتبت فيها الكتب .

من هذه القضايا التي ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية وعادت واستعرت من جديد ما بين مفكري وعلماء المسلمين واليهود: ادعاء محبة الله لليهود وقضية التحريف والنسخ .

وقد ظلت تهمة التحريف والنسخ والإنكار للحقيقة هي التهمة الملازمة لليهود طوال عشرات ومئات السنين التي مرت منذ وجهت إليهم أيام الرسول . وكثير ما جرت هذه التهمة على اليهود المصائب والويلات .

صحيح أن بداية هذه التهمة كانت قديمة ، ورافقت الجدل العنيف والحاد الذي صور في السيرة النبوية ، والذي كما صور ، دار بين الرسول وأحبار اليهود منذ هجرته إلى المدينة ، وبرزت في الصدامات الكلامية بين الرسول وكبار الصحابة من جهة وبين أحبار اليهود في المدينة من الجهة الثانية ، وقد اجتهد ابن هشام في السيرة النبوية أن يثبتها ويؤكدها بالإستشهاد بالآيات القرآنية العديدة التي جمعها ، حتى أصبحت سيرة ابن هشام تُشكل مصدراً كبيراً ورئيسياً يستقي منه المهتمون بالحوارات الدينية معلوماتهم ومواد جدلهم ونقاشهم .

لكن الذي حدث بعد وفاة الرسول وانتصار الإسلام أن خمد صوت المعارضة ولم يعد لغير الإسلام مكانة خاصة ، وقد كان

عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، حازماً في خطواته لتثبيت الإسلام المحافظة على إبقاء بلاد العرب موحدة في الدين، فكانت قوانينه المشهورة بالنسبة لغير المسلمين، وكانت خطوته في ترحيل اليهود من بلاد العرب، اعتماداً على حديث نبوي نُسب للرسول يقول فيه " لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ". ومثل عمر، عمل الخلفاء الراشدون، وبعدهم الأمويون على إعلاء مكانة العرب والمسلمين، وبهذا منعوا أي صوت يبغى النيل من هذه السياسة الواضحة الحازمة. وقد ظلت قوانين عمر الشديدة التي حرّمت على اليهود تعلّم القرآن أو الجدل مع المسلمين سارية إلى حد ما، كما أن ابتعاد اليهود عن مراكز الحضارة - في المدن - وانشغال القسم الكبير منهم بالزراعة أبعدهم عن مراكز الإهتمام وإثارة النقاشات طوال قرنين من الزمن، وهذه المدة تعتبر فترة سوداء في تاريخ اليهود كما يقول موشيه برلمان.

لكن هذا الابتعاد عن مراكز الحضارة لم يدم إلى الأبد، وعادت مجموعات كبيرة من اليهود وغيرهم لتهجّر الأعمال الزراعية وتوجه إلى المدن وتقيم في أحيائها، ولتختلط بالسكان المسلمين، وتشارك في مختلف النشاطات الثقافية، ومن ضمنها الحوارات الدينية المختلفة.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الإختلاط إلى أن يعتنق العديد من اليهود والمسيحيين الدين الإسلامي، وإن يحدث

الإحتكاك بين مختلف الفئات ويشتدّ. وأن يكون للذين أسلموا من اليهود والمسيحيين دور كبير في نقل معلومات كبيرة وقيمة عن العهدين القديم والجديد، وعن كثير من الأفكار والفلسفة المسيحية اليهودية مما كان لها أهميتها في تزويد العلماء المسلمين في الجدل الذي دار بين المسلمين واليهود والمسيحيين .

كان الإهتمام لدى علماء المسلمين موجهاً في البداية، بالإضافة إلى الفئات الإسلامية المختلفة، إلى المسيحيين . وأما اليهود فكان هؤلاء يكتفون بذكرهم والإشارة إليهم بمعلومات قليلة، وقد يعود سبب ذلك إلى عدد اليهود القليل في الإمبراطورية الإسلامية، بينما توجد مراكز تجمعات كبيرة من المسيحيين ومراكز حضارة كبيرة هم عصبها، أضف إلى ذلك وجود الإمبراطورية الرومانية المسيحية، والحضارات المسيحية التي كانت مراكزها في البلاد التي فتحها المسلمون، مثل مصر وسوريا .

أمّا الجدلّ الديني الموجه ضد اليهود والذي لم يُحفظ شيء منه، قبل القرن الحادي عشر، فقد نبع وتغذى من مصادر وأصول مسيحية، منها ما قبل الإسلام ومنها حديثة ومعاصرة . وعاد وقوي هذا الجدل في القرن الحادي عشر وما بعده، وذلك لأن الكثيرين من المسيحيين واليهود الذين اعتنقوا الإسلام ساعدوا على ذلك واجتهدوا فيه .

لقد اجتهد كبار الفلاسفة وحكماء اليهود مثل سعاديا
סעאדיא הגאון וيهودا هليفي والرمبام (موسى بن ميمون) أن
يجيبوا بكتاباتهم على الاتهامات الموجهة ضد اليهود، ولكنهم
فعلوا ذلك بصورة رمزية وشفافة، ونجد أن الرمبام منع اليهود من
الدخول في جدل ديني ونقاشات مع المسلمين لما في ذلك من ضرر
قد يعود على اليهود الذين يشكلون أقلية بين المسلمين .

هذا المنع والوعي لضرورات الواقع، أدى إلى عدم قيام
حكماء اليهود وفلاسفتهم بالكتابة ضد الإسلام، وكتب قليلة فقط
كُتبت، أهمها كتاب نُسب إلى شموئيل هنجيد إسماعيل بن
يوسف بن النغريلة الذي جمع الصفات العديدة، فالى جانب
مزاياه كرجل دولة وإدارة وقائد عسكري كان شاعراً وزعيماً
للطائفة اليهودية .

وقد أثار هذا الكتاب الذي نُسب إلى شموئيل هنجيد
وكاتبه حفيظة ابن حزم الذي يعتبر من أكبر فلاسفة الإسلام في
القرن الحادي عشر، فكتب رداً عليه وهاجمه بشدة وعنف .

صحيح أن هناك علماء مسلمين من قبل ابن حزم حملوا
لواء الدفاع عن الإسلام، لكنّه كان المميز والأكبر في القرن الحادي
عشر، وقد عمل على كتابة العديد من الكتب في الرد والهجوم
على اليهود والمسيحيين، حتى أنه من خلال كتابه الذي خصّصه
للرد على شموئيل هنجيد أطلعنا على فصول هذا الكتاب المفقود

ومحتوياته . كما أنه في كتابه الضخم " كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل " خصّص الفصول العديدة للحديث عن المسيحيين واليهود ، وناقش العديد من القضايا المثيرة للجدل ، مثل قضية حقيقة نصوص التوراة وما اتهم به اليهود من النسخ ، وعزير وغيرها . وتدلل هذه الفصول على سعة إطلاع ابن حزم على التوراة والكتب اليهودية الأخرى .

وقد وزع ابن حزم الفصول التي تناول فيها اليهود على النحو التالي :

١- الكلام على اليهود وعلى من أنكر التثليث من النصارى ومذهب الصابئين ومن أقرّ بنبوة زرادشت من المجوس وأنكر ما سواه .

٢- فصل في تناقضات ظاهرة في التوراة والإنجيل يتبين بها تحريفها .

٣- فصل في أن السامرة بأيديهم توراة غير التوراة التي مع سائر اليهود .

٤- الكلام في أن النصارى ما قالت مقالاتها إلاّ تبعاً لما قالته اليهود في بعض أسفارها .

٥- الكلام في بيان فساد قول اليهود إن مسكن بني إسرائيل بمصر أربعمائة وثلاثون سنة .

٦- فصل الكلام على ما هو أشنع في شهرة الكذب وشنعة المحال

٧- في وصف قيام بني إسرائيل على موسى إلخ .
٨- في الكلام على ما ذكره من فصول التوراة التي هي سبعة وخمسون فصلاً وما فيها من التحريفات .
٩- الكلام على أن التوراة لم تكن موجودة إلا في الهيكل عند الكاهن .

١٠- الكلام في ذكر طرف مما في سائر الكتب التي عندهم .
١١- الكلام في بيان ما اعترض به بعضهم والجواب عنه .
١٢- الكلام في بيان إقرارنا بالتوراة وغيرها من كتب الأنبياء .
١٣- الكلام في بيان خطأ من أنكر أن التوراة والإنجيل غير محرّفين .

١٤- الكلام في ذكر شيء من كلام أحبارهم .
ظل كتاب ابن حزم هذا وغيره من الكتب التي تناولت اليهود والنصارى ، مجال اهتمام وبحث وتعليق المهتمين بالموضوع على مدار مئات السنين لما اتسمت به هذه المؤلفات من العمق والشمولية والمعرفة بأدق المعلومات والقدرة على الوقوف عليها ومناقشتها .

وكما ذكرت سابقاً ، فإن دخول العديد من علماء النصارى واليهود في الدين الإسلامي وفر لعلماء الجدل الديني مادة غزيرة وأصيلة ، ومعرفة بأدق التفاصيل ومن منبعها الأصلي ، حيث أن هؤلاء الرجال تزعموا حركة الجدل المدافعة عن الإسلام والمتّهمة

لنصارى واليهود، مستغلين بذلك معرفتهم الواسعة للكتب السماوية " التوراة والإنجيل " .

وكان السموءل المغربي أبرز هؤلاء بكتابه الشهير " **إفحام اليهود** " وقد ناقش في كتابه هذا مواضيع حساسة ودقيقة كان لها أهميتها في الجدل الديني الذي أُثير واشتد مثل :

النسخ ، وقد حاول إثبات أن اليهود نسخوا الكثير مما ورد في التوراة ، وهو يأتي بالعديد من الأمثلة لدعم رأيه .

التأكيد على صدق نبوة المسيح ومحمد . إبطال ما يقوله اليهود حول محبة الله لهم . إثبات كفر اليهود وتحريفهم لما ورد في التوراة . الرد على ما يقوله اليهود حول الإسلام . وتشديدهم الأصر على أنفسهم .

وظل كتاب " **إفحام اليهود** " لقرنين من الزمن يُعتبر المصدر الأول للجدل مع اليهود ، وقد اشتهر وأعيد نسخه أكثر من مرة لأهمية القضايا التي أثارها كاتبه ، خاصة وهو اليهودي المطلع على علوم دينه السابق ، وقد يكون بالغ إلى حد ما في بعض الطروحات ليؤكد ما ذهب إليه من آراء . وقد كان السموءل المغربي شديد القدرة على تناول قضايا تفصيلية ودقيقة تُبهر الجاهل وتُخرج العارف ، ويضعها تحت مجهره النقدي اللاذع ، فلا يترك للخصم المجال للرد .